شعرية النسر
في الخطاب الشعري القديم
شعرية النسر والأسطورة المنزاحة

الانزياح مصطلح أوجده النقد الأسطوري للدلالة على أن الأسطورة الأصلية تخضع لتعديل يجريه الشاعر أو الأديب حتى يلائم بينها وبين موقفه ونظرته. ولو كانت مجتمعات اليوم كمجتمعات الأمس البعيد لما كان ثمة حاجة إلى إجراء التعديل الذي يزيح الأسطورة عن أساسها وهيكلها الأولي. فنظرة الشاعر في مجتمعاتنا مضطرة أن تضع في حسابها كثيراً من المستجدات كروح العصر وظهور مخترعات حضارية ونشوء علاقات جديدة بين الطبقات الاجتماعية وتغير في الاتجاه السياسي العام، وقيام أنظمة وسقوط أنظمة... أشياء وأشياء تجبر الشاعر على استخدام الأسطورة الأولية استخداماً جديداً ، المفاهيم الاجتماعية والقيم الأخلاقية والطموحات الفكرية..... على أن الانزياح لا يقتصر على تغيير الأدوات القديمة بأدوات جديدة وحسب، بل إنه يشمل الفكرة ذاتها، إذ قد يوظف الشاعر هذه الفكرة توظيفاً جديداً، أو قد يضخم فكرة ثانوية ويجعلها تتصدر الأسطورة. إن في فكرة الأسطورة الكثير من الموتيفات الثانوية التي قد يختار منها الشاعر ما يناسب نظرته وما يعالج به الموضوعات التي يطرحها عصره))[٦٤] .

من المعروف فى التصورات الأسطورية تداخل بعض الأساطير وترامیها بعضها إلى بعض ، نرى هذا فى ترامى النسر إلى عالم العقاب وتداخلهما معا فى عالم الصقر فى التراث الأسطورى العربى، وقد لحظ الدكتور نذير العظمة فى بحثه عن(سفر العنقاء) شيئا من هذا التداخل بين العنقاء والصقر وطائر السميرغ وغير ذلك من الطيور فى التراث الأسطورى العالمى، وأقر بأن ((الأسطورة كل أسطورة تدخل التاريخ و تصير بعضا من صور الأزمنة الغابرة، وتدخل الأشياء والكائنات فتتماهى معها وتبقى منفصلة عنها ومتحدة بها، تتلون بها الطقوس والغنيات والقصص وتحمل هى ألوانها جميعا أو بعض ما يشير إلي تلك ألوان وترفل الأمكنة بأوشحة القداسة، يخرج التاريخ من الأسطورة ليصير علما أو مايشبه العلم ، ويبقى الكثير من الأساطير عالقا به أو متحدا، يتوسد الشعر وسائد حشيت بريشها المدهش فيمتلىء بالصور ،

ويصير له كيان مستقل ويبقى حامى نكهة الأساطير ووهجها، وبين هذا التداخل والامتزاج والتفرد وطول الترحال من حضارة إلى حضارة الكثير من الملامح التى تعطى للكائن فرادته، والأسطورة كائن مكون من كائنات ، ورمز تطلع إنساني بعيد الغور))[٦٥].

والقصيدة كما نرى من صور هذا التدامج بين النسر والعقاب فى الشعر الذى أورده الفريق فوزى المعلوف لامرىء القيس يصف بها فرسه مشبها لها بالعقاب، ولا بأس بإيراد الأبيات التي يصف بها العقاب هنا لأنه لم يرد منها كما يقول المعلوف في دواوين امرئ القيس المطبوعة إلا البيت الأول فقط والأبيات هي:

كأنهـــا حـــين فـــاض المـــاء واحتفلـــت

ســـقعاء لاح لهـــا القفـــرة والـــذيب

فأبصـــرت شخصـــه مـــن رأس مرقبـــة

ودون موقعهـــــا منـــــه شـــــناخيب

فأقبلـــت نحـــوه فـــي الجـــو كاســـرة

يحثهـــا مـــن هـــوى اللـــوح تصـــويب

صبت عليـــه ولـــم تنصـــب مـــن أمـــم

إن الـــبلاء علـــى الأشـــقين مصـــبوب

كالـــدلو بتـــت عراهـــا وهـــي مثقلـــة

وخانهـــــا وذم منهـــــا وتكريـــــب

لا كـــالتي فـــي هـــواء الجـــو مطالبـــة

ولا كهـــذا الـــذي فـــي الأرض مطلـــوب

كـــالبرق والـــريح مرآتاهمـــا عجـــب

ما في اجتهـاد عـن الإسـراع تغبيـب

فأدركتـــــه فنالتـــــه مخالبهـــــا

فانســل مــن تحتهــا والــدف منقــوب

يلــوذ بالصــخرمنها بعــد مــا فتــرت

منهــا ومنــه علــى الصخرالشــآبيب

ثــم اســتغاث بــدحل وهــي تعفــره

وباللســـان وبالشـــدقين تتريـــب

ماأخطأتــه المنايــا قــيس أنملــه

ولا تحــرز إلا وهــو مكــروب

فظــل منجحــرا منهــا يراصــدها

ويرقــب الليــل إن العــيش محبــوب[٦٦]

والقصيدة كما نرى درة من درر الشعرى الرمزى الدرامى، ولعلنا نتذكر هنا قصيدة (العقاب الهرم)) للعقاد وما عاناه بعد العزة والعلو من مرارات السفوح الواطئة بعد أن تحولت بالشعر والشاعر العربى المعاصر هويته الذاتية ومعا أيضا الهوية العربية من شامخ عال إلى خفض، وسوف نتعرض لهذا الشعر بالتفصيل الجمالى فيما بعد، ولكننا نؤكد هنا بأن الوجود الشعرى للنسر قد بلغ فى الشعرية القديمة ذرى سامقة من ذرى الفن الأصيل، حيث نجد النسر قناعا، ونراه رمزا، ونراه أسطورة، ونراه بناءا دراميا متناميا، وبناء على هذا يعد بحثنا عن شعرية النسر إضافة جوهرية لمجمل الرموز الكلية التى كونت الشعرية العربية القديمة والحديثة معا، مثله مثل رمز الناقة والطلل والفرس والمطر والسقيا والغيث، بل نجد هذا التداخل الجمالى

الخلاق بين بنية الشعر نفسه بين النسر وعالم الحيوان فيصف عبيد ابن الأبرص ناقته كانها مثل ((لقوة طلوب)).

كأنهـــــا لقـــــوة طلـــــــــــوب   تخزن فـــى وكرهـــا القلـــوب
باتـــــت علـــــى أرم عـــــذوبا   كأنها شـــيخة رقـــــــــــــوب[٦٧]

فهى ناقة دقيقة المسالط لطيفة المخارج، كأنها طائر يسلك بصاحبه مسالك صعبة لكنه قادر على السيطرة عليها فى كل حين، وكان الناقة هنا أصبحت وجها من وجه السندباد المغامر، فهى مثل النسر الشيخ الرقوب الذى يلحظ ببصره الحديد رزقه من بعيد.بل يمتد النسر بعوالمه الأسطورية إلى المتناهى فى الصغر فى الوجود اليومى للشعر الجاهلى نجد هذا لدى طرفة ابن العبد الذى لا ينسى أن يصف ذيل ناقته بقوله:

كـــــأن جنــــــاحي مضـــــرحى تكنفـــــا
حفافيــــه شـــكّا فـــى العســـيب بمســـرد

إن عالم الطير بصفة عامة ينمى عوالم تدفع إلى - على - التجاوز والتسامى لخلق عوالم أسطورية فى بنية الشعر، وعلى رأس هذه الطيور شيخها الوقور النسر، ومن هنا شاع فى أمثالهم القديمة للشىء الصعب المنال بـ((يزل عنه ظفر الطائر)) يقول زيد الخيل:

ونــــون تـــزل الطيـــر عـــن قذفاتـــه
وترمى أمام السهل بالصـــدع الغفـــر[٦٨]

وجاء النسر مثله مثل الشاهين والصقر والعقاب معادلا جماليا للفتوة الجاهلية والعزة والإباء والفروسية القديمة، فتجيء جميع هذه الطيور معادلا للقوة والصلابة فى مواجهة الخنوع والضراعة، يقول شبيب بن البرصاء المرى:

إذا افتخرت سعد بن ذبيان لم تجد

سوى ما ابتنينا ما يعد فخورها

فلا خير فى العيدان إلا صلابها

ولا ناهضات الطير إلا صقورها

ألم تر أنا نور قوم وإنما

يبين فى الظلماء للناس نورها[٦٩]

وهو نفسه ما يشير إليه عامر بن الطفيل فى افتخار بعناد وصلابة النسر الموازى الجمالى لذاته فى مقابل أعدائه، يقول الشاعر:

وتركت جمعهم بلاية ضرغد

جزر السباع وكل نسر أهدب[٧٠]

وتتحول شعرية النسر إلى جدل جمالى بين بغاث الطير من الحبارى والقطاة ممثلة ذات المهجو، وبين النسر . الذى لم يفرق الشاعر الجاهلى بينه وبين الصقر والأجدل والعقاب . رمز العنفوان والاقتدار، يقول دريد مصورا هذا العراك:

فلو ثقفتك وسط القوم ترصدنى

إذا تلبس منك العرض بالحقب

وما سمعت بصقر ظل يرصده

من قبل هذا بجنب المرح من خـــرب[٧١]

دائما نجد هذا القران الشعرى التصويرى بين عالم الحرب والفروسية وعالم النسر، بين السمو والتعالى وصعوبة المنال وتحليق النسور، فى الصراع بين عالم الضعفاء ممثلا فى البزاة والحبارى والقطاة وبغاث الطير وعالم الأقوياء ممثلا فى العقبان والنسور والشواهين، ودائما نرى أيضا انتصار الضعيف بحيلة حب الحياة على القوى بشراسته التى تبدد طاقة الحياة فيه، تماما كما فى لوحة الحمار الوحشى والكلاب ، أو لوحة الطلل والسقيا والغيث، ولوحة الذئاب والحملان، لم يترك الشعر العربى القديم شاردة ولاواردة فى عالم النسر إلا استنفد فيه وبه طاقته الشعرية الكامنة فيه، حتى كسوة سهم الفارس يجعلها الشنفرى من ريش النسر، ويجعل موضع الوتر من السهم كعرقوب القطاة، يقول الشنفرى:

ومستبسل ضافى القميص ضممته بأزرق لا نكـــس ولا متعـــوج

عليه(نسارى)على خوط نبعة وفوق كعرقوب القطاة مـــدحرج[٧٢]

لقد تقلبت شعرية النسر مع تقلبات هموم روح العربى القديم مجسدة نوازع أشواقه ، ومعارج خياله ، وقد كان النسر معادلا جماليا كليا للهوية الفردية والجماعية معا، ينزاح باستمرار عن نمط أعلى من الأنماط التى تكتنف الروح والعقل العربى من كل الجوانب ، وقد ذكر الدكتور عبد القادر الرباعى فى دراستيه المتعتين عن: ((الطير والمعتقد فى الشعر الجاهلى)) و ((الطير وعالمه الحيوانى فى الشعر الجاهلى)) قصصا شعرية متعددة تماثل القصة الشعرية التى أوردها فوزى المعلوف لامرىء القيس، وهى تصور أوجها من الصراع بين بعض الطيور الأليفة والطيور الجارحة أو سباع الطير، وهى قصص شعرية رمزية درامية مشابهة للقصة الشعرية الدرامية التى أتقن لوحتها امرىء القيس فى لوحته السابقة، نرى ذلك فى قصيدة

للشاعر(صخر) تصور ذلك الصراع الأبدى بين الحياة والموت متمثلا فى عراك الصقر والأفراخ الأليفة الزغبة ، وقد جاء ذلك فى رثاء الشاعر صخر لأخيه بعد أن نهشته حية فمات:

ولله فتخـــــاء الجنـــــاحين لقـــــوة

توســـد فرخيهـــا لحـــوم الأرانـــب

كأن قلوب الطير فـــى جـــوف وكرهـــا

نوى القسب يلقى عند بعـــض المـــآدب

فخاتـــت غـــزالا جاثمـــا بصـــرت بـــه

لـــدى ســـمرات عنـــد أدمـــاء ســـارب

فمـــرت علـــى ريـــد فأعنـــت بعضـــها

فخرت على الـــرجلين أخيـــب خائـــب

تصـــيح وقـــد بـــان الجنـــاح كأنـــه

إذا نهضت فى الجـــو مخـــراق لاعـــب

وقد ترك الفرخان فى جـــوف وكرهـــا

ببلـــدة لا مـــولى ولا عنـــد كاســـب

فريخان ينضـــاعان فـــى الفجـــر كلمـــا

أحسا دوى الـــريح أو صـــوت ناعـــب

فلـــم يرهـــا الفرخـــان عنـــد مســـائها

ولم يهـــدآ فـــى عشـــها مـــن تجـــاوب

فـــذلك ممـــا يحـــدث الـــدهر إنـــه

له كـــل مطلـــوب حثيـــث وطالـــب[٧٣]